بين الواح سومر وسفر التكوين

الدكتور فاضل عبدالواحد علي
استاذ السومريات / جامعة بغداد

كنا قد تناولنا في بحثين سابقين الحديث عن الآثار الفكرية والحضارية التي تركها التراث السومري والبابلي في سفر التكوين في التوراة •

اذ اشرنا في كتابنا « الطوفان »[1] عن التشابه بين القصة السومرية ـ البابلية والقصة التوراتية •

كما واشرنا في بحثنا الموسوم « جنة عدن والفردوس المفقود »[2] الى اوجه التشابه بين المعتقدات السومرية ـ البابلية عن جنة عدن وبين ما حفظه سفر التكوين بهذا الخصوص • وقد تناولنا بشيىء من التفصيل في هذه المقالة الاخيرة ، بين اشياء اخرى ، حطيئة آدم وخروجه من الجنة وقارنا ذلك بفشل ادبا في الحصول على الخلود كما ترويها القصة البابلية •

بقي لدينا موضوعان رئيسيان من تلك التأثيرات السومرية ـ البابلية في سفر التكوين وهما « خلق الكون والانسان » و « قصة مولد موسى » وهذا ما سوف تتناوله في بحثنا الحاضر • وبذلك نكون قد اتممنا في هذا البحث والبحثين السابقين الحديث عن التأثيرات السومرية ـ البابلية في سفر التكوين والتي اخترنالها مجتمعة عنوان « بين الواح سومر وسفر التكوين » •

خلق الكون والانسان

الف السومريون والبابليون من بعدهم اساطير وقصص عديدة تتناول بصورة مباشرة او غير مباشرة موضوع خلق الكون وخلق الانسان ، وجاءوا بهذا الخصوص بافكار مهمة اعتمدتها كثير من الشعوب المعاصرة واللاحقة لهم كلا او جزءا • ونذكر من هذه الاساطير على سبيل المثال الاسطورة الخاصة

بكلكامش ورفيقه انكيدو[٣] حيث تحتوى مقدمتها ، رغم قصرها ، على معلومات في غاية الاهمية عن انفصال السماء عن الارض على يد الاله انليل بعد ان كانتا كتلة واحدة .

والكون في السومرية an-ki « السماء والارض » يمكن تجزئته بموجب الفكر السومرى الى جزئن ، سماوى ويتكون من السماء وفضاء فوقها (يعني في السومرية «العلى») حيث تسكن الالهة السماوية . والآخر ارضي ويتكون من سطح الارض وفضاء تحتها يعرف بـ « العالم السفلي » ، حيث تعيش الهة العالم السفلى وحيث يوجد الاموات . ويمكن القول على ضوء المعلومات الواردة في هذه المقدمة لقصة « كلكامش وانكيدو » وعلى ضوء اساطير سومرية اخرى مثل اسطورة « الماشية والحنطة » واسطورة « خلق المعول » ان هناك خمس نقاط اساسية عند السومريين بخصوص خلق الكون :

١ - في البدء كانت مياه البحر (في السومرية الالهة نمو Nammu) والارجح ان السومرين تصوروا ان المياه هذه كانت ازلية طالما لا يوجد ما يشير في النصوص السماوية الى اصلها او « مولدها » .

٢ - من مياه البحر الازلية هذه « ولد » جبل كوني يمثل السماء والارض متحدثين : السماء في (السومرية An واعتبرت عنصرا مذكرا) . والارض (Ki عنصرا مؤنثا) .

٣ - نتيجة « لاتحاد » السماء والارض ولد اله الهواء انليل .

٤ - ان الاله انليل فصل السماء عن الارض « فحمل » ابوه (An) السماء وحمل هو الارض .

٥ - بعد ان تم فصل السماء عن الارض وتم خلق الكواكب والنجوم ظهرت معالم الحياة على الارض .

اما بالنسبة للبابليين فلا شك في ان قصة الخليقة البابلية الموسومة « عندما كان في العلى » (اينوما ايلش)[٤] تعتبر على قدر كبير من الاهمية بالنسبة للموضوع • غير ان هذه القصة ، برغم تفاصيلها الكثيرة وطابعها المسرحي في عرض قصة التكوين ، لا تختلف في جوهرها كثيرا عن معتقدات السومريين المذكورة اعلاه •

هنا نجد أيضا انه لم يكن في البدء سوى المياه الازلية « أبسو » (المياه العذبة ، مذكر) وتيامة (المياه المالحة مؤنث) ، وانه من امتزاجهما ولد الجيل الاول من الالهة ثم الثاني والثالث ••• وتتكاثر على هذا النحو وبصبح صخبها وضجيجها مدعاة لضجر ابيهم « ابسو » فيعقد العزم على ابادة ابنائه • لكن الآلهة الحديثة تعلم بالمكيدة فتقدم على قتله • وتحاول تيامة الانتقام لزوجها القتيل فتجند كل ما لديها من قوى وارواح شريرة فتاكة • وازاء ذلك تصاب الالهة بالذعر وتجتمع لتتدبر الامر •• وبعد الاخذ والرد تعلن بالاجماع اختيار الاله مردوخ ملكا عليها وبذلك تضعه امام مسؤولية الدفاع عنها وخوض حرب طاحنة ضد تيامة وجيوشها • ويقود مردوخ جيوشه ويخرج في نهاية الصراع منتصرا وذلك عندما يقتل تيامة ويشطر جسدها الى شطرين ليجعل من اولهما السماء ومن ثانيهما الارض •

هنا في اسطورة الخليقة البابلية نجد ايضا ان المياه كانت اصل الوجود وان السماء والارض تكونتا ، على غرار المعتقدات السومرية ، نتيجة لعملية انشطار جسد تيامة (المياه المالحة) الى شطرين على يد مردوخ •

ان خلق الكون في معتقدات السومريين والبابليين وما تبعه من خلق النجوم والكواكب له ما يوازيه في بداية الاصحاح الاول من سفر التكوين حيث تعتبر التوراة ان المياه اصل الوجود وان السماء والارض خلقتا بعد عملية فصل ايضا « بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد »[٥] •

وكذلك فقد كان خلق الانسان واحدا من المواضيع التي تناولتها الأساطير السومرية والبابلية على حد سواء والتوراة ايضا • اذ نفهم من اسطورة سومرية يعود زمن تدوينها الى الالف الثالث ق•م ان الالهة اصابها الجوع بعد ان تكاثرت وزاد عددها وان الالهة نمو « الام التي ولدت كل الالهة » جاءت الى ابنها انكي اله المياه وطلبت منه ان يخلق « عبدا للالهة ينتج لها طعامها » • وكان جواب انكي ان الامر ممكن وان عليها ان تأخذ شيئا من الطين « الذي وسط مياه العمق وتخلق منه الانسان ، وينخرم الرقيم الطيني في هذا الموضع من النص ، وعندما ينتظم ثانية نجد الاله انكي يقيم دعوة للالهة للاحتفال على ما يبدو يخلق الانسان • وفي خلال ذلك تقوم الآلهة نماخ (السيدة العظيمة) باخذ قطع من الطين وجعلها على صورة البشر بينما « يقرر لها انكي المصائر »•

ونقرأ في اسطورة سومرية اخرى[٦] ان الالهه بقيت بحاجة الى المزيد من اللبن والخبز حتى بعد ان تم خلق لخار (اله الماشية) واشنان (الهة الحنطة) وانها لذلك خلقت الانسان ليعنى بزرائب الماشية ولتتمكن هي من التنعم بمزيد من الاكل والشرا ب•

اما عند البابليين فتعتبر قصة الخليقة وقصة الطوفان « اتراخاسيس » من المراجع الاساسية عن موضوع خلق الانسان وتتميز قصة الطوفان البابلية لـ « اتراخاسيس »[٧] عن قصة الخليقة وعن غيرها من المراجع المسمارية ذات العلاقة بخلق الانسان في انها تحتوى على تفاصيل وافية عن عملية الخلق لا يجدها الباحث في المؤلفات المسمارية الاخرى • فنحن نقرأ في منتصف الرقيم الاول من هذه القصة ان الالهة العظام آنو وايا وانليل اجتمعوا ليتدبروا الآمر بشأن التمرد الذي قامت به الالهة المسماة ايكيكي (Igigi) فالمعروف عن هذه الالهة انها اوكلت بمهمة اصلاح الارض وفلاحتها وانها عملت اربعين عاما حتى اضناها التعب ومشقة العمل فاعلنت عصيانها مطالبة بحلق من يحمل عنها « النير » • وبعد مناقشة الامر بين الالهة العظمى طلب ايا اله

الحكمة من الالهة الاخرى ان تبعث في طلب ننتو (Nintu) الهة النسل لتخلق الانسان الذي عبر عنه النص البابلي بكلمة لوللو (Lullu) [٨] .

وعندما حضرت الالهة ننتو خاطبها الالهة العظام قائلين :

انت يا الهه النسل القادرة على خلق البشر
اخلقي لوللو من اجل ان يحمل النير
ليحمل النير الذي فرضه انليل
ليحمل الانسان عناء الالهة

وتذكر قصة الطوفان البابلية لـ « اتراخاسيس » انه جيىء بعد ذلك بالاله وى ـ ايلا (We-ila)[٩] فذبح امام الالهة و « مع لحمه ودمه مزجت الالهه ننتو الطين » وخلقت منه الانسان :

وذبحوا في مجلسهم وى ـ ايلا الذي كانت له شخصية .
ومع لحمه ودمه
مزجت ننتو الطين
ثم استعملوا الى الطبل[١٠] لما تبقى من الوقت
فكانت روح من لحم الاله
ونودى (بالانسان) الحي رمزا لها[١١]

واذا ما صرفنا النظر عن التفاصيل الجزئية ، فيمكننا القول على ضوء ما تقدم ان المآثر السومرية والبابلية تتفق على نقاط جوهرية بخصوص خلق الانسان وهي :

١ ـ ان الانسان خلق من طين (او طين ودم حسب المآثر البابلية) .

٢ ـ ان خلق الانسان لم يكن غاية في حد ذاتها او نتيجة مكملة لبقية مراحل خلق الكون وانما حدث بسبب العناء الذي اصاب الالهة من جراء العمل في الارض فقررت ان تخلق بديلا عنها يحمل المشقة .

٣ - انه خلق من اجل ان يكد ويكدح في الارض لكي يريح الالهة من عناء العمل وليقدم لها الطعام .

وبالمثل فقد كان خلق الانسان بموجب التوراة من اجل « ان يعمل الارض » « كما انه جبل ترابا من الارض »[١٢] على غرار ما رأينا عند السومريين والبابليين .

بين سرجون وموسى : تشابه في قصة المولد

كان سرجون الاكدي (٢٣٧٠ - ٢٣١٦ ق.م) بحق واحدا من المع شخصيات التاريخ القديم . فعهده كان بداية لحكم اقوام الجزيرة العربية في العراق بعد ان كانت الهيمنة السياسية بيد السومريين . واليه يعود الفضل في توحيد دويلات المدن وفي ترسيخ قواعد الدولة التي كتب لها ان تصبح بفضل فتوحاته العسكرية واحدة من اشهر الامبراطوريات في المنطقة .

لقد وصلتنا من سرجون بضعة نصوص كتابية تسجل بالدرجة الاولى منجزاته العسكرية في توطيد نفوذه في الداخل وفتوحاته الواسعة في الخارج[١٣] .

أما النص الذي نحن بصدده الان ، وهو الذي يتعلق بقصة مولد هذا الرجل ، فانه وصلنا من فترة تاريخية متأخرة ، حيث تعود نسختان منه النهاية مهشمة في النسختين) الى العصر الآشوري الحديث (في حدود ٧٥٠ ق.م) بالاضافة الى كسرة من رقيم تحتوى على جزء من النص تعود الى العصر البابلي الحديث (في حدود ٦٠٠ ق . م)[١٤] . وعلى الرغم من بعد الزمن بين عصر سرجون والعصر الذي كتبت فيه هذه الالواح فاننا لا نشك اطلاقا في انها مستنسخة من الواح اقدم كانت تتضمن النص الكامل لقصة مولد هذه الشخصية الفريدة .

ان ما تبقى من قصة مولد سرجون على الرقم الثلاثة المهشمة لا يزيد على واحد وثلاثين سطرا لكنها تعتبر رغم ذلك على قدر كبير من الاهمية للباحثين في اصول التراث العراقي القديم .

يقول سرجون في هذا النص عن نفسه ما يلي :

انا سرجون الملك العظيم ، ملك بلاد اكد
كانت امي كاهنة عظمى (enetu في الاكدية)[١٥] وانا
لا اعرف ابي
كان شقيق ابي يحب الجبال
ومدينتي كانت آزوبيرانو (Azupiranu) [١٦]
التي تقع على ضفاف الفرات
لقد حملتني امي وولدتني سرا
ووضعتني في سلة من البردى ختمت غطاءها بالقير
ومن ثم رمتني في النهر الذي لم يغمرني
فحملني النهر واخذني الى الغراف آكي (Akki)
فاتخذني الغراف آكي ابنا له
وجعلني الغراف آكي بستانيا عنده .
وعندما كنت بستانيا منحتني عشتار حبها[١٧]
فاضطلعت بمهمة الملوكية اربعا و (...)[١٨] سنة
لقد سست وحكمت ذوى الرؤوس السود[١٩]
وقهرت الجبال الشاهقة بفؤوس برونزية قاطعة
تسلقت القمم العليا
وعبرت القمم السفلى
وطوفت حول بلدان البحر ثلاث مرات
واستولت (يداى) على دلمون[٢٠]

••• وغيرت •••••
فاى كان الملك من بعدى
فعسى ان يسوس ويحكم ذوى الرؤس السود
ويقهر الجبال الشاهقة بفؤوس برونزية قاطعة
ويتسلق القسم العليا
ويعبر القسم السفلى
ويطوف حول بلاد البحر ثلاث مرات
(وتستولى يداه على دلمون)
ويقصد مدينة الدير[٢١] العظيمة
••• من مدينتي اكد •••

يتضح من هذا النص ان ام سرجون كانت كاهنة عظمى (في السومرية (Nin-Dingir) والاكدية entu) وانها كانت مضطرة لان تتخلص من وليدها غير الشرعي فرمته في النهر • فأم سرجون باعتبارها كاهنة عظمى كانت من الوجهة الدينية زوجة للاله، حتى ان اسمها (Nin-Dingir) يعني « السيد الالهية » • ولهذا لم يكن لها حق الزواج وبالتالي الانجاب كما ان القوانين اوجبت عليها التعفف ومنعتها من التردد الى الاماكن المشبوهة ، وبعكسه فهي تعرض نفسها الى عقوبة الحرق • ومن جهة اخرى فقد فرض المشرع عقوبة الجلد وحلاقة نصف الرأس على كل من يأتي بتهمة باطلة ضد هذه الكاهنة • ولهذا اضطرت ام سرجون الى ان تتخلص من وليدها غير الشرعي بالطريقة التي وصفها لنا النص ، والا عرضت نفسها الى مشاكل اجتماعية وقضائية كثيرة •

ومما تجدر الاشارة اليه بخصوص الكاهنة العظمى في وادى الرافدين ان معظمهن قد جرى اختبارهن من الاميرات (بنات الملك) • ولدينا قائمة تحتوي على اسم اثنتي عشرة كاهنة ممن كرسن للخدمة في معهد اله القمر ننا

(سـن) في اور • ومن محظ الصدف، ان تكون اولى تلك الكاهنات الاميرة انحيدوانا (Enḫeduanna) ابنة الملك سرجون الاكدي نفسه الذي اراد لها على ما يبدو ، ان تحترف الكهانة على غرار جدتها (امه) •

ان قصة مولد سرجون هذه تشبه الى حد ما القصة المعروفة عن مولد موسى[٢٢] اذ تذكر التوراة ان الفرعون امر جميع شعبه قائلا : كل ابن يولد تطرحوا في النهر لكن كل بنت تستحيونها • وذهب رجل من بيت لاوى واخذ بنت لاوى فحبلت المرأة وولدت ابنا • ولما رأته انه حسن خبأته ثلاثة اشهر • ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سفطا من البردى وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر •

ووقفت اخته من بعيد لتعرف ماذا يفعل به • فنزلت ابنة فرعون الى النهر لتغسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر ، فرأت السفط بين الحلفاء فارسلت امتها واخذته • ولما فتحته رأت الولد واذا هو صبي يبكي • فرقت له وقالت هذا من اولاد العبرانيين ، فقالت اخته لابنة فرعون هل اذهب وادعي لك امرأة ترضعه من العبرانيات ودعت ام الولد لها ابنة فرعون اذهبي بهذا الولد وارضعيه لي وانا اعطي اجرتك • فاخذت المرأة الولد فصار لها ابنا • ودعت اسمه موسى وقالت اني انتشلته من الماء (الخروج ١ : ٢٢ ، ٢ : ١ – ٢٠) •

ان قصة سرجون وموسى تلتقيان في نقاط عديدة تذكر ابرزها :

١ – ان ولادة الطفلين في كلتا القصتين تحاط بالكتمان • فأم سرجون كانت مرغمة على كتمان ولادته لانها حملت به وهي كاهنة عظمى • وكذلك موسى فولادته احيطت بالكتمان ايضا لان فرعون كان قد أمر بقتل ابناء العبرانيين •

٢ ـ تتطابق القصتان في روايتيهما عن وضع الوليد في سلة والقائه في النهر ٠

٣ ـ في كلتا القصتين هناك مما ينتشل الوليد ويرعاه : الغراف آكي في قصة سرجون وابنة فرعون في قصة موسى ٠

مراجع وملاحظات :

(١) فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان (جامعة بغداد ١٩٧٥) ص ٦٩ وما بعدها ٠

(٢) مجلة كلية الآداب ، المجلد ٢٢ (١٩٧٨) ص ٢٦٩ ـ ٢٨٣ ٠

(٣) Kramer, Sumerian and Mythology, P. 30-41.

(٤) Heidel, The Babylonian Genesis, P. 1 ff.

(٥) التوراة التكوين ٦ ـ ٧ ٠

(٦) Kramer, op. cit, P. 68.

(٧) فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان (١٩٧٥ ص ٩) وما بعدها ٠

(٨) الكلمة (Lullu) مستعارة من السومرية Lu-ulux والتي تعني حرفيا الانسان البعيد او « السحيق » اى « الانسان الاول » وتستعمل الكلمة (Lullu) احيانا للتعبير عن الانسان المتوحش باعتبار ان التوحش أى كان من صفات الانسان البدائي : انظر :

Von Soden, Akkadische Handworterbuch, P. 562, Speisir, Ancienet Near Eastern Texts, P. 68 n. 86.

اما الكلمة السومرية (lu) ومرادفتها الاكدية awelu فأنها تدل على الانسان او البشر بالمعنى الاعتيادى ٠

(٩) يكتب اسمه احيانا بشكل وى (we) فقط ٠ اما مدلول الاسم فأنه غير واضح ٠ ولا يخفى ان الاله وى ـ ايلا في قصة اتراخاسيس نظير للاله كنكو (Kingu) في قصة الخليقة البابلية التي اشرنا اليها في اعلاه فالاله حكم عليه بالموت بعد ان شهدت ضده الالهه ايكيكي بكونه قائدا لقوات تيامه العادية ومن ثم ذبح من اجل ان يخلق الانسان من دمه ٠

(١٠) يبدو ان قرع الطبول كان جزءا من الطقوس الخاصة بالخلق وان كانت الاشارة هنا غير واضحة ٠

(١١) فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان ص ٥٣ .

(١٢) التوراة : التكوين ٢ : ٦ ـ ٨ ٠

(١٣) L. oppenheim, "Text, from the Begining of the First Dynasty of Babylon", in Ancient Near Eastern Texts, p. 265-266.

(١٤) Speiser, "The Legend of Sargon", in Ancient Near Eastern Texts, p. 119.

(١٥) اصبح اكيدا الآن ان الكلمة enetu ليست سوى صيغة ثابتة للكلمة المعروفة entu « الكاهنة العظمى » التي كان يقابلها في المعبد السومرى ـ البابلي الكاهن الاعظم (enu) ، انظر :

Chicago Assyrian Dictionary , Vol. 4, 172.

(١٦) تعني الكلمة « الزعفران » (على غرار الزعفرانية) غير ان موقعها غير معروف ٠

(١٧) كثير من ملوك وامراء وادي الرافدين ادعو بمحبة عشتار الهة الحب والخصب)لهم والاشارة تعني ضمنيا اختيارها سرجون للملوكية حيث ان الحكم في وادى الرافدين كان يقوم على مبدأ التفويض اي ان الالهي تختار واحدا من البشر ليحتلها في حكم البلاد ٠

(١٨) الكلمة المخرومة لابد كانت الرقم (٥٠) حيث حكم سرجون في حدود (٢٩٧٠ ـ ٢٣١٦ ق٠م) ٠

(١٩) اصطلاح شائع الاستعمال في وادي الرافدين والمقصود به « الناس الشعب » بصورة عامة ٠

(٢٠) البحرين حاليا ٠

(٢١) هناك مدينة الدير الواقعة على بعد ١٦ ميلا جنوب غربي العاصمة بغداد كما ان هناك مدينة اخرى بهذا الاسم تقع بالقرب من بدرة على الحدود الشرقية لوادى الرافدين مع ايران ٠

(٢٢) الراجح ان مولد موسى وخروجه فيما بعد من مصر مع العبرانيين كان قد حدث في زمن الفرعون رعسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٣٤ ق٠م) والراجح ايضا ان اسم موسى مصري يعني « الوليد » « الطفل » على غرار Tutmose الوليد (الاله) توت ، ومعنى هذا ان موسى كان يعرف بالاصل باسم كامل بقي منه في الاستعمال جزء واحد هو موسى ، انظر :

J. Wilson, The culture of Egypt, Phoemix Books (1954) pp. 254 -256;

Finegam, Light from the Anceint East (1954), P. 105-109, 116.